واللحوم من كل الاصناف واللحم النيء والبيض والاصداف والنباتات الخالية من النشاء كالوبياء الخضراء والهندبة والكرفس والكرنب والخس والبكويت وخبز الخشكريش الذي وصفهُ الدكتور فانديك في كتابهِ

القسم الثاني ما يجوز استعمالهُ قليلاً ارضاء لشهوة النفس من وقت الى آخر وهو الحليب وبعض الاثمار كالليمون والخبز المحمَّر

والقسم الثالث ما لا يجوز للعليل ان يذوقهُ ابدًا كالتين والعنب والبطاطس والارز والعدس والكعك والمواد السكريَّة كالدبس والعسل الخ

(٢) الاحتياطات الصحيَّة كبس الفلانلا والحمام الساخن وتغيير الهواء

(٣) المقويات لاعالة الجسم ومقاومة كل ما يحدثُ بما يناسبهُ. واما الادوية التي تستعمل لشفاء العلة فلا تجدي نفعًا وقد مدح بعضهم استعمال الافيون والبلادونا وبروميد البوتاس وادوية اخرى من هذا القبيل ومدح بعضهم اخيرًا استعمال البنكرياتين بناء على ان ضعف غدة البنكرياس هو السبب فزعم انهُ اذا استعملت هذه الغدة اكلاً نابت عن وجود الغدة في جسم العليل ويظهر ان الاطباء لم يهتموا لذلك حتى الآن فالحمية في الطعام خير الوسائل

نبيه * في السطر الثالث من هذه المقالة كلمة البول صوابها الدم

النار والسيف في السودان

المهدي ودعوتهُ

وصلنا في الجزء الماضي من المقتطف الى الكلام على سليمان بن الزبير وتعيينهِ مديرًا لبحر الغزال ووشاية ادريس الابتر بهِ. ونقول الآن ان وشاية ادريس هذا صُدِّقت فعُين مديرًا لبحر الغزال بدلاً من سليمان بن الزبير وأُرسل اليها بالجنود فثارت الحرب بينهما ودارت الدائرة على سليمان اخيرًا ووشى بهِ اعداؤهُ الدناقلة واوغروا صدر جسي باشا قائد الحملة عليهِ واقنعوهُ انهُ لا يزال عاملاً على الثورة فامر بقتلهِ. وكان عبدهُ رابح قد قدَّر لهُ ذلك ونهاهُ عن التسليم وحضَّهُ على الابعاد عن الحكومة والايغال في البلاد بكلام يدل على شدة دهائهِ وحسن نظرهِ في العواقب. قال انك ناوأت الحكومة بعد ان حذَّرتك العواقب فلا تتوقعنَّ منها عفوًا اذا صرت في قبضتها اما انا فسوفَّي الانفصال عنكم بعد ان شاركتكم في السرَّاء والضرَّاء هذه السنين الطوال ولكنني لا اسلِّم نفسي لجسي وان كان اوربيًّا لان

الدناقلة محيطون بهِ وهو مطواع لهم. ثم ذكَّرهم بالعداوة القديمة بين الجعليين والدناقلة واشار عليهم بالذهاب غرباً وفتح بلدان جديدة او يرفع شكواهم إلى الحضرة الخديويَّة وإلى غوردون باشا وطلب العفو منهما. وقال انهم ان لم يقبلوا رأيهُ الاول ولا الثاني اضطرَّ إلى الانفصال عنهم رغماً عنهُ. فانفصل وجرى لهم بعدهُ ما جرى

وذهب سلاتين إلى دارة واقام فيها وحارب السلطان هرون إلى ان قُتل في شهر مارس (اذار) سنة ١٨٨٠ . ودانت لهُ بلاد دارفور بعد حروب كبيرة وقمع ثورات عديدة فاصلح شؤونها ونظم امورها واحبهُ اهلها واكرموهُ اكراماً عظيماً حتى كانوا يفتدونهُ بارواحهم

وفي تلك الاثناء ظهر المهدي وانتشرت دعوتهُ في السودان واسمهُ محمد احمد ولد بجزيرة ارقو في دنقلة من عائلة فقيرة تدَّعي انها من الاشراف . وابوهُ فقيه فعلَّمهُ القراءة والكتابة وسار بهِ الى الخرطوم وهو صغير السن لكنهُ مات في اثناء الطريق . ثم لما عظم شأن ابنهِ بنى قبة عَلَى قبرهِ وتسمى قبة السيد عبدالله الى اليوم

وعكف محمد احمد عَلَى الدرس فاستظهر القرآن ودرس علم التفسير ثم مضى الى بربر وانتظم في حلقة محمد الخير فاتمَّ دروسهُ واقام فيها ولا همَّ لهُ الاَّ الدرس والزهد ولما بلغ اشدَّهُ ذهب الى الخرطوم وانتظم في حلقة الشيخ محمد شريف بن الشيخ نور الدائم بن الشيخ الطيب من شيوخ الطريقة السمانيَّة فاخذ عنهُ . ثم انتقل الى جزيرة عبة في النيل الابيض واجتمع عليهِ نفر من التلامذة فكانوا يعيشون بزرع الارض وبما يعطيهم المارون في النيل من الصدقات. واحتفل بعضهم بختان اولادهِ ودعا جمعاً غفيراً واذن لهم ان يغنُّوا ويرقصوا قائلاً ان الله يغفر ما يرتكبونهُ حينئذٍ من الذنوب . فنهاهم محمد احمد عن ذلك وقال ان الشريعة لا تجيز الرقص والغناء ولا احد يجيزها ولو كان شيخ الطريقة نفسهُ. وبلغ ذلك محمد شريف فاغاظ منهُ واستحضرهُ فحضر خاضعاً ذليلاً وطلب العفو فلم يعفُ عنهُ بل وبخهُ توبيخاً صارماً ومحا اسمهُ من الطريقة السمانيَّة وكان ذلك امام كثيرين من الفقهاء

وعاد محمد احمد الى الشيخ محمد شريف متذللاً والرماد عَلَى رأسهِ والشبا[1] في رقبتهِ وطلب العفو منهُ فلم يعفُ عنهُ بل صرفهُ ذليلاً وقال لهُ اذهب فقد صدق فيك المثل القائل "الدنقلاوي شيطان مقلد في جلد انسان". فعاد وقد خنقتهُ الدموع ولكنها لم تكن دموع الحزن بل دموع الغيظ والعجز . ثم اخبر تلامذتهُ ان الشيخ محمد شريف طردهُ بتاتاً وانهُ عازم عَلَى الالتجاء الى الشيخ القريشي وهو من شيوخ الطريقة السمانيَّة ايضاً وكان بينهُ وبين الشيخ

(١) عود ذو شعبتين يوضع في العنق علامة التذلل

محمد شريف مناظرة شديدة . و بلغ الشيخ محمد شريف ذلك فاستدعاهُ اليهِ ووعدهُ بالصفح فابى قائلاً اني لا اريد ان تتداني لدنقلاوي مثلي . ورحّب بهِ الشيخ القريشي فاشتهر ما دار بينهُ و بين شيخهِ الاول واستعظمهُ الناس لانهم لم يسمعوا شيخاً صغيراً مثلهُ يرفض الصفح من شيخ كبير . واذاع محمد احمد انهُ انفصل عن شيخهِ لانهُ وجدهُ يخالف الشريعة والسنة

وقد صوّب كثيرون ما فعلهُ و بلغ صيتهُ بلاد دارفور وتحدّث بهِ الخاصة والعامة . ولما عاد الى بيتهِ في عُبة جاءهُ الزوار من اماكن كثيرة معجبين بجرأتهِ واهدوا اليهِ هدايا كثيرة فقبلها منهم شاكراً ووزعها على الفقراء زهداً فأُطلق عليهِ اسم الزاهد . ثم جال في بلاد كردفان والّف رسالةً دعا بها المؤمنين الى تطهير البلاد من مفاسد الحكام ووزعها على اخصّائهِ

وبعد ايام قليلة توفي الشيخ القريشي فذهب محمد احمد وتلامذتهُ وبنوا قبةً على قبرهِ . واتاهُ حينئذٍ عبد الله بن محمد التعايشي (من تعيشة قبيلة من قبائل البقّارة) وطلب الانتظام في الطريقة السمانيّة واقسم لهُ يمين الطاعة . وكان لعبد الله ثلاثة اخوة اصغر منهُ وهم يعقوب و يوسف وسماني واخت اسمها فاطمة وكان ابوهُ قد اختصم مع اقاربهِ وعزم على الذهاب الى مكة بأولادهِ والقيام فيها و يقال انهُ كان رجلاً تقيًّا ورعًا يداوي الامراض بكتابة الحُجب وكان عبد الله و يوسف اشقى اولادهِ وقد تعذّر عليهِ ان يعلمهما ما يلزمهما حفظهُ من القرآن اما يعقوب وسماني فكانا مثلهُ في الطبع والتديُّن والحفظ

وكانت عائلة عبد الله من الذين قاوموا الزبير حينما دخل دارفور فأخذهُ الزبير اسيراً وامر بقتلهِ ولكن تشفّع فيهِ بعض العلماء فاطلقهُ . ثم اتاهُ عبد الله وقال لهُ حملتُ انك انت المهدي المنتظر واني ساكون من اول انصارك فقال لهُ الزبير انا لست المهدي ولكني لما رأيت العرب سدّوا طرق التجارة اتيت لافتحها

ثم بلغ عبد الله ما حدث بين محمد احمد والشيخ محمد شريف فعزم ان يلحق بمحمد احمد و بلغهُ بعد عناء شديد فوجدهُ يبني قبر الشيخ القريشي فاقسم لهُ يمين الطاعة كما تقدم . ودعا محمد احمد واحداً من تلامذتهِ اسمهُ علي واوصاهُ بهِ ليجعل يساعدهم في بناء القبر ولما اتموهُ عادوا الى عبّة . واُصيب عبد الله هناك بالدوسنطاريا فأخذهُ علي الى كوخهِ واعتنى بهِ وذهب يوماً ليجلب لهُ ماء من النهر فافترسهُ تمساح . وعادهُ محمد احمد حينئذٍ ورأى اشتداد المرض عليهِ فنقلهُ الى كوخهِ وسرّ اليهِ انهُ هو المهدي المنتظر . هذا ما قالهُ عبد الله التعايشي لسلاتين باشا بعد ذلك . ولعلّ عبد الله هو الذي اغرى محمد احمد بهذه الدعوى كما اراد ان يغري الزبير .

وكان اسم محمد احمد قد ذاع في الجزيرة كما تقدم وجاهر بانهُ عازم على تطهير الارض من المفاسد . واخبرهُ عبد الله عن احوال القبائل في البلاد الغربيَّة واستعدادهم للحرب واشار عليهِ ان يذهب اليهم ويحثهم على ذلك فذهب الى دار حجر اولا ثم الى الابيض وزار الشيوخ والرؤساء واخبرهم بغرضهِ قائلاً ان الله دعاهُ ليطهّر البلاد من الفساد . ولكنهُ قال لهم انهُ لم يحُن الوقت لذلك واخذ عليهم العهود الوثيقة انهم لا يفشون ما اخبرهم بهِ الاَّ بعد ان ينهض للقيام بدعوتهِ . ورأى حينئذٍ ان الاهالي يكرهون الحكومة لشدَّة وطأتها عليهم ويميلون الى الثورة ولا سيما بعد ان عيَّن غوردون باشا الياس باشا السوداني مديرًا عامًّا على كردفان ووقعت المناظرة بينهُ وبين غيرهِ من السودانيين الذين كانوا يعدون انفسهم احق منهُ بهذا المنصب

قال سلاتين اما الاوربيون الذين كانوا هناك فكانوا محبوبين غاليًا الاَّ ان منعهم تجارة الرقيق اغاظ السودانيين فحنقوا عليهم ايضًا . ورأى محمد احمد نفور الاهالي من رجال الحكومة عمومًا ورأى ايضًا انهُ لا يمكنهُ ان يجمع كلمتهم الاَّ عَلَى مسألة دينيَّة لاختلاف شعوبهم وعصبياتهم فادَّعى انهُ المهدي المنتظر وان غرضهُ ان يطهّر البلاد من الاتراك والمصريين والاوربيين ويظهر لنا من قرائن كثيرة ان عبد الله التعايشي هو الذي اغراهُ بذلك وسوَّل لهُ الحصول عليهِ

وكان محمد شريف قد اخبر رؤوف باشا مدير عموم الخرطوم بمقاصد محمد احمد ولكن رؤوف باشا حمل ذلك عَلَى ما بينهما من العداوة . ثم لما بلغهُ تفاقم الخطب اوجس خيفة فعزم ان يتدارك الشرَّ في اولهِ وبعث بمحمد بك ابي السعود الى عبة وامرهُ ان ياتيهُ بمحمد احمد الى الخرطوم . وبلغ الخبر محمد احمد وما اضمرتهُ لهُ الحكومة فلما جاءهُ ابو السعود واشار عليهِ بالمجيء معهُ الى الخرطوم ليبرىء نفسهُ ممَّا نسب اليهِ ضرب صدرهُ وقال أَلي تقول هٰذَا القول وانا سيد البلاد بنعمة الله ورسولهِ . فاجفل ابو السعود وحاول تسكين جاشهِ اما هو فزاد حدةً ونصح لابي السعود ان يؤمن بهِ . وكان قد دبَّر امر هذهِ المقابلة بمشورة عبدالله التعايشي واخيهِ . فعاد ابو السعود الى الخرطوم وهو لا يصدّق بالنجاة واخبر رؤوف باشا بما سمع . ورأى محمد احمد ان قد حانت الفرصة لمناوأة الحكومة واذا لم يغتنمها دارت الدائرة عليهِ فكتب الى اصدقائهِ في جهات السودان يحثهم عَلَى الثورة وحث اخصاءهُ عَلَى الجهاد

وعاد رؤوف باشا فارسل ضابطين (يوز باشيين) مع ابي السعود وفرقتين من العساكر ليأتوهُ بهِ ورأى ان ينهض همة الضابطين فقال لهما ان من يأتيني بهِ اعطيهِ رتبة بكباشي . فادَّت المناظرة بينهما الى المنافضة وحبطت مساعي الاثنين . وعلم محمد احمد ذلك فادَّعى ان الله امرهُ

بالجهاد واوحى اليهِ ان من يُقتَل فيهِ يُلقب امير الاولياء ويُجعل في رتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني. وهجم اليوز باشيان عليهِ من جهتين متقابلتين وهما لا يعرفان البلاد وجعلا يطلقان البنادق عَلَى اكواخهِ وكان قد خرج منها برجالهِ واختبأ في الحشيم فاصاب الجنود بعضهم بعضاً وفيما هم كذلك باغتهم رجالهُ واعملوا فيهم السيوف والحراب ففرقوهم ايدي سبا وهرب قليلون منهم ونجوا سباحة الى السفينة وكان ابو السعود في انتظارهم فيها لانهُ لم يجسر ان ينزل إلَى البر فعاد بهم الى الخرطوم

وجرح محمد احمد في ذراعهِ حينئذٍ ولكن عبد الله التعايشي ربط الجرح واشار عليهِ ان لا يخبر احدًا بهِ . وذاع انتصارهُ على رجال الحكومة ولكن الناس خافوا من اتباعهِ لانهم كانوا يعلمون ان لا قِبَل لهُ بمناوأة الحكومة . فاشار عليهِ عبد الله ان يبعد عن الخرطوم ما استطاع الى جنوبي كردفان . واذاع انهُ أُوحي اليهِ ان يمضي الى جبل ماسا وينتظر الاعلان الالهي . لئلاَّ يقال انهُ هرب من وجه الحكومة . وعيَّن لهُ اربعة من الخلفاء قبل ان ترك عبة بمنزلة الخلفاء الراشدين اولهم عبد الله التعايشي وثانيهم علي ولد حلو من قبيلة الدقهيم ورابعهم محمد الشريف وهو من اقاربهِ واما الثالث فلم يعينهُ . وعرض هذه الخلافة على السيد السنوسي بعد ذلك فرفضها

ثم عبر النهر الى الضفة الغربية ووجهتهُ جبل ماسا واجتمع حولهُ الاتباع واتَّفق ان رجال الحكومة المصرية الذين التقوا بهِ اوعملوا بمسيرهِ على مقربة منهم اهملوا الايقاع بهِ إما انتظارًا لاوامر الحكومة او لاسباب اخرى فحمل اتباعهُ ذلك عَلَى خوف الحكومة منهُ . وبلغ رشيد بك مدير فشودا امرهُ فاتنى اثرهُ ولكنهُ لم يكن عارفًا مقدار ما بلغت اليهِ قوتهُ فناجأتهُ رجال محمد احمد وقتلوا رجالهُ وعددهم الف واربع مئة قبل ان يطلق احد منهم بندقيتهُ وكان ذلك في ٩ دسمبر سنة ١٨٨١ فعظم شأنهُ من ذلك الحين ولا سيما في عين قبائل العرب وجاهر حينئذٍ انهُ هو المهدي المنتظر (وسنطلق عليهِ هٰذا الاسم بعد الآن)

وكتب إلَى جميع الاقطار يدعو الناس إلَى الجهاد وسمَّى اتباعهُ انصارًا ووعدهم باربعة اخماس الغنائم وابقى الخمس لنفسهِ . وكان اتباعهُ من الصعاليك المستضعفين واكثرهم عراة الابدان فلم يكن لجنود الحكومة مرغب في محاربتهم اذ لا غنيمة من ورائهم على الاطلاق اما هم فكانوا على الضد من ذلك جياعًا عراةً فكل جندي يقتلونهُ يجدون معهُ ما يسد الرمق ويستر البدن

ولما تغلب على مدير فشودا ادركت الحكومة جسامة الامر وبعثت يوسف باشا شلالي

وعبد الله ولد دفع الله ومعهما ستة آلاف مني الجنود المنظمة وغير المنظمة . واتفق ان عبد الله باشا هذا سقط عن جواده وهو خارج من الابيض فتشاءم من ذلك وحذّر يوسف باشا من سوء العاقبة ولكن يوسف باشا ورجاله كانوا يحتقرون المهدي اشد الاحتقار لانهم كانوا ابطالاً اشدّاء وقد دوّخوا بلاد بحر الغزال وقهروا سلاطين دارفور ولذلك لم يعتدّوا به ولا تنازلوا لاقامة زريبة حول مخيمهم فهجم عليهم رجاله وهم نيام صباح اليوم السابع من شهر (حزيران) يونيو سنة ١٨٨٢ وقتلوا يوسف باشا وهو في قميص النوم واثخنوا في رجاله وقتلوا عبد الله ولد دفع الله ايضاً

وكان انقلاب يوسف باشا على هذا الاسلوب الضربة القاضية على سلطة الحكومة في تلك الانحاء فاعتقد السودانيون ان المهدي انما قهره بقوّة الهيّة ولا سيما لان الاتراك والمصريين حكموهم ستين سنة بذراع من حديد ونكّلوا بهم تنكيلاً فتيام فقيه خامل الاسم وتغلّبه على جنود الحكومة وليس معه الاّ رجال حفاة عراة يكادون يهفون جوعاً اقنعهم انه المهدي المنتظر كما ادّعى

فاطاعه جنوبي كردفان وغنم كثيراً من الاموال والخيول والاسلحة ففرقها على رؤساء القبائل فزادهم ايقاناً بدعوته لانهم رأوه لا يهتم بحطام الدنيا . وكانت اخبار نصرته تتعاظم بانتشارها في البلاد ويبالغ فيها حتى اشتملت على كثير من الخوارق والمعجزات . وقبائل العرب مائلون بالفطرة الى الحريّة والحرب والنهب فرأوا فيه ما يوافق ميلهم فتخلصوا من دفع الجزية للحكومة وغزوا كل من حسبوه مقيماً على ولائها وغنموا اموالها

وكاتب المهدي تجار الابيض وكانوا على جانب عظيم من الثروة وهم من ادرى الناس بضعف الحكومة فانحاز كثيرون منهم اليه ولا سيما الياس باشا اغنى تجار كردفان وكان قبلاً مديراً عاماً لها وعُزل من منصبه . وكان بينه وبين احمد بك دفع الله ضغائن . واحمد بك هذا هو اخو عبد الله ولد دفع الله الذي قُتل مع يوسف باشا الشلالي كما تقدم وكان صديقاً لمحمد باشا سعيد مدير الابيض فخاف الياس باشا ان يوقعا به اذا انتصرا على المهدي فجعل يجمع الاتباع سرّاً ليحاز بهم اليه ووافقه بعض التجار خوفاً من ان المهدي يأخذ اموالهم ويسبي نساءهم اذا كانت الغلبة له

وسُرّ العلماء بقيام واحد منهم لمناوأة الحكومة وتوقعوا ان يتسلطوا على البلاد كلها تحت رايته إنْ هو تغلب عليها وطرد الاتراك منها

وبعث الياس باشا بابنه عمر الى المهدي ليخبره بحال الابيض ويزيّن له الزحف عليها

وظنّ سعيد باشا ان لا بدَّ للمهدي من الزحف عليهِ فأخذ يستعد للحصار بحفر الخنادق واقامة المتاريس ولكنهُ لم يشترِ ما يلزم من المؤن

وثارت قبائل العرب في كردفان والجزيرة واوقعت برجال الحكومة وهجمت عَلَى المدن والقرى وخربتها وقتلت اهلها وغنمت ما فيها . فبعثت الحكومة المصريَّة بعبد القادر باشا مديرًا عامًّا على السودان فوصل الخرطوم في ١١ مايو (ايار) سنة ١٨٨٢ وشرع يحصن المدينة حين وصولهِ فثبت للناس ان الحكومة نفسها قد خافت شرَّ المهدي وانها لولا اعتقادها بقدرتهِ ما تأهبت لهُ هذا التأهُّب . اما المهدي فقبل دعوة الياس باشا وزحف على الابيض عاصمة كردفان وهي من اغنى مدن السودان فتبعهُ اليها الوف الوف من العرب طمعًا بالسبي والنهب وكان دعاتهُ قد سبقوهُ اليها وانبثوا بين الناس يقنعونهم بدعوتهِ ويحذرونهم عاقبة محاربتهِ فلم يكد يصل اليها ويقيم امامها اياماً حتى خرج اليهِ جانب كبير من الاهالي وكان قد وعدهم انهم اذا اقفلوا ابوابهم وخرجوا اليهِ امنوا على اموالهم ففعلوا كما قال لهم ولم يأخذوا معهم الاَّ النقود

ولما ابتدأ الحصار ارسل يطلب من سعيد باشا التسليم فقرَّ رأي الضباط عَلَى قتل رسلهِ فقتلوهم وامر سعيد باشا جنودهُ ان يجمعوا كل ما يجدون في البيوت والمخازن من الحنطة ويأتوا بهِ الى حصن المدينة فجعل الجنود ينهبون بيوت السكان نهبًا . وكان المهدي يعظ الناس نهارًا وليلاً ويحثهم عَلَى الجهاد ويعدهم بالغنائم في الدنيا وامجاد النعيم في الآخرة . ويوم الجمعة في الثامن من سبتمبر قام بهم وهجم عَلَى المدينة فانهال عليهم رصاص الحامية كالسيل وقتل منهم الوفًا كثيرة وممن قُتل محمد اخو المهدي ويوسف اخو الخليفة عبد الله وكثيرون من الامراء. ولو اتَّبع سعيد باشا مشورة احمد بك دفع الله وخرج في اثر المهدي ورجالهِ لقتلهُ واثخن فيهم وانقرض اسم المهدويَّة من ذلك الحين ولكنهُ ظن ان ما جرى للمهدي كافٍ لحل عزائمهِ وإبعاد رجالهِ عنهُ فاخطأ ظنهُ وابعد المهدي قليلاً عن الابيض ولكنهُ بقي مشددًا الحصار عليها

وظهر في تلك الاثناء نجم كبير من ذوات الاذناب فارتاع منهُ اهالي السودان وايقنوا ان ظل سلطة الحكومة قد تقلَّص وانهُ سيزول بسيف المهدي . وارسلت الحكومة الفي مقاتل نجدة للابيض فلقيها عرب الجوامعة واثخنوا فيها فلم يسلم من الالفين الاَّ مئتان . وحاصر الثائرون بارة وشبت النار فيها فاحرقت مخازنها فلم يعد للحامية شيء تقتات بهِ فاضطرت إلَى التسليم لعبد الله ولد النجومي وذلك في اوائل سنة ١٨٨٣ وأُتي بضباطها إلَى المهدي فعفا عنهم واخذ جنودهم وكانوا من السودانيين وضمهم إلَى رجالهِ . وكان بين الضباط رجل متملق اسمهُ جبو

وهو كردي الاصل فخضع للمهدي وطلب بركتهُ ثم استأذنهُ في الزواج مدَّعيًا انهُ لم يزل عزبًا فسرَّ المهدي بذلك وقال اقتدوا بهذا الرجل الصالح في صلاحهِ ثم اذن لهُ في الزواج واعطاهُ النفقة اللازمة. وجاءهُ جبو بعد بضعة ايام وهو كاسف البال فقال لهُ ما شأنك فقال طلقت زوجتي فقال ولماذا اراأيتها قبيحة المنظر او سليطة اللسان فقال لا هٰذا ولا ذاك ولكني طلقتها لذنب عظيم جدًّا وذلك انني طلبت منها ان تصلي فلم تصلِّ واني لا اقدر ان اعيش مع امرأة تهمل الصلاة. فسرَّ المهدي بهِ سرورًا عظيمًا ولا سيما لانهُ جاهر بذلك على رؤوس الاشهاد فاعطاهُ مالاً وافرًا. قال سلاتين ورأيت جبو هٰذا سنة ام درمان بعد موت المهدي وتولي الخليفة عبد الله فذكَّرتهُ بهذه الحادثة فقال "ان المهدي على كثرة شروره لم يكن شديد الخبث وكان الانسان يستطيع احيانًا ان ينتفع منهُ ولكن ويل لمن ينتظر نفعًا من الخليفة عبد الله"

ولما بلغ المهدي خبر تسليم بارة اطلق مئة مدفع احتفالاً بذلك فسمعت حامية الابيض صوت المدافع ظنت ان مددًا كبيرًا اتاهُ ثم بلغها سقوط بارة فزادت اسفًا على أسف. ودام الحصار خمسة اشهر وقلَّ القوت من المدينة وبيع اردب الذخن باربع مئة ريال والجمل بالف وخمس مئة ريال والفرخة باربعين ريالاً والبيضة بريال او ريال ونصف فمات اكثر السكان والحامية جوعًا واخيرًا اضطر سعيد باشا ان يسلم وكان عازمًا ان ينسف مخازن البارود قبل التسليم ولكن الضباط توسلوا اليهِ ان لا يفعل خوفًا على مَن بقي حيًّا من نسائهم واولادهم. ووعدهُ المهدي قبل التسليم انهُ لا ينالهُ شيء من الاذى هو وضباطهُ وتجار المدينة وارسل اليهم محمد بن الحريق بالجبب المرقعة التي يلبسها الدراويش فلبسها هو ومحمد بك اسكندر القومندان والبكباشي نسيم افندي واحمد بك دفع الله ومحمد بك حسن وغيرهم من الضباط فخرجوا الى المهدي فقابلهم جالسًا على جلد المعزى شان الاتقياء الزهاد فقبلوا يديهِ فقال انهُ عاذرٌ لهم على مقاومتهم لانهم لم يكونوا يصدقون دعوتهُ ثم طلب منهم ان يقسموا لهُ يمين الطاعة فاقسموا فقدَّم لهم تمرًا وماء وطلب منهم ان يتركوا نعيم الدنيا ولا يهتموا الاَّ بالحياة الاخرى. ثم التفت إلى سعيد باشا وقال لهُ انت تركي فلا اللومك على الدفاع عن المدينة التي كنت والياً عليها ولكنك اسأت بقتل رسلي لانهُ ليس من العدل ان يقتل الرسول. ولم يتم كلامهُ حتى اجابهُ اسكندر بك قائلاً ان سعيد باشا لم يقتل رسلك بل انا الذي امرت بقتلهم بصفتي قومندانًا للصون لاني حسبتهم عصاةً واني قد اسأت في ذلك كما قلت. فقال المهدي اني لم اقصد بسؤالي ان تبرروا انفسكم لان رسلي قد فازوا بما طلبوهُ فانهم كانوا يتمنون ان

يموتوا شهداء فكان لهم ما تمنوهُ من فضل الله وهم الآن يتمتعون بأمجاد الجنة وعسى ان تقتفي كلنا خطواتهم "

ثم نُبشت الابيض ولم يترك لسكانها شيء بل كانوا يُجلدون ويعذَّبون لكي يدلوا على الاماكن التي اخفوا فيها اموالهم . وكان سعيد باشا على جانب عظيم من الثروة فطلب منهُ احمد ولد سليمان امين بيت المال ان يدلهُ على اموالهِ فانكرها وبلغ المهدي ذلك فاستحضرهُ اليهِ واوصى امين بيت المال ان يغري عبيد سعيد باشا ليدلوهُ على المكان الذي اخفى فيهِ اموالهُ ثم جعل يسرد لهُ قواعد الدين ويبين لهُ زوال الدنيا ويسألهُ مرةً بعد اخرى عن اموالهِ فيجيب ان ليس عندهُ اموال فيعود المهدي إلى الوعظ والانذار وكان ذلك بمحضر انصارهِ واتباعهِ . واهتدى امين بيت المال إلى جارية من جواري سعيد باشا دلَّتهُ على المكان الذي اخفى فيهِ مولاها اموالهُ فدخل واسرَّ ذلك الى المهدي فتظاهر بانهُ لم يلتفت اليهِ وبقي يعظ وينذر ويسأل سعيد باشا عن اموالهِ ويقول " ان المال اصل كل الشرور " وهذا ينكر انهُ اخفى شيئاً واخيراً قال لهُ المهدي

" أتظنني مثل باقي الناس ألا تعلم انني المهدي المنتظر وان النبي أوحى اليَّ بالمكان الذي خبأت اموالك فيهِ " ثم نادى احمد ولد سليمان امين بيت المال وقال لهُ " اذهب الى بيت هذا التركي وانقب الحائط بقرب الباب عن يسارك فتجد كنوزهُ فجئني بها " فذهب وعاد بعد برهة قصيرة وبيدهِ صندوق من الصفيح ففتحهُ المهدي واذا فيهِ نحو سبعة آلاف جنيه ذهباً ثم التفت الى سعيد باشا وقال لهُ " قد سامحتك " وقال لامين بيت المال " خذ هذه النقود ووزعها على الفقراء والمحتاجين " . ثم التفت إلى احمد بك دفع الله وقال لهُ " اليك عن هذا الرجل (اي سعيد باشا) فانهُ عبيد وثق بي فيكون لك كل ما تريد ولقد نصحتُ اخاك سرًّا ولكنهُ ابى الاَّ ان يبقى مع اعداء الله فاهلكهم الله وذرَّاهم امامي كالعصافة امام الريح فلا تكن مثلهُ بل نجِّ نفسك حتى اذا انقضت هذا الحياة الدنيا تتمتع بمسرات الجنة ". فقال احمد " اني لا اريد ان ادخل جنة ليس اخي فيها " قال ذلك وخرج . فلم يفه المهدي بنت شفة . واشتهر حالاً ان سعيد باشا ابى ان يخبر المهدي بالمكان الذي اخفى فيهِ اموالهُ فاعملهُ النبي بهِ وصار ذلك حديث الناس وكانوا كلهم يقولون ان الله ارسل المهدي ليهلك الاتراك

ويظهر من القليل الذي ذكرهُ سلاتين باشا من كلام المهدي بنصهِ مكتوباً بحروف انكليزيَّة ان لغتهُ سقيمة جداً مثل لغة عامة الناس كقولهِ عن سعيد باشا " دا ما بينفع معنا " ولكننا اضطررنا ان نترجم كلامهُ كلهُ بلغة معربة لان نص عبارتهِ لم يذكر الاَّ في فقرات قليلة

واشتغل المهدي حينئذٍ بارسال الرسائل الى جهات السودان يدعو المؤمنين إلى طاعته ونبذ طاعة الحكومة المصرية والملذات الدنيوية وينهاهم عن السكر والتبغ

وكتب سعيد باشا تقريرًا عن تسليم الابيض ابان فيهِ انهُ اضطرَّ الى ذلك لمَّا لم يبقَ لهُ مناص منهُ وختمهُ هو وكل ضباطهِ وارسلهُ الى الخرطوم مع رسول وكان بين الخاتمين ضابط اسمهُ يوسف منصور فخاف ان يقع هذا التقرير في يد المهدي فينتقم منهم جميعًا فمضى اليهِ ووقع على قدميهِ واخبرهُ بما جرى ورأى في طريقهِ محمد بك اسكندر فانعهُ ان يفعل مثلهُ ففعل. فأقتفى اثر الرسول حالاً وأخذ التقرير منهُ وشاع حينئذٍ ان النبي ظهر للمهدي واخبرهُ بهذا التقرير . واغتنم المهدي تلك الفرصة للانتقام من الذين امضوا التقرير فتناهم ثم قتلهم وعفا عن يوسف منصور ومحمد بك اسكندر وجعل الاول منهما قومندانًا على المدافع

وبقي يحث الناس على ترك اوطانهم والمجيء اليهِ والاشتراك معهُ في الجهاد وكان يعظهم دائمًا ليتركوا اللذات قائلاً اني اخرب الدنيا واعمر الآخرة . فجاءهُ الناس افواجًا افواجًا الى الابيض رجالاً ونساء واولادًا وكلهم تائق الى رؤيتهِ وسماع كلامهِ وكان يلبس جبة وسراويل ويتمنطق بمنطقة من خوص ويضع على رأسهِ طاقية مكية يلف حولها عمامة بيضاء ويتظاهر بالخشوع والاتضاع اذا كان في مشهد الناس واذا دخل بيتهُ خلع رداء النسك وانغمس في الملذات الطعام والنساء . فان رجالهُ كانوا يرسلون اليهِ النساء والبنات اللواتي يسبوهن فيختار كل الجميلات منهنَّ ويضيفهنَّ الى نسائهِ

ورأى بعد فتح الابيض ان يعين الخليفة الرابع فكتب إلى السيد السنوسي يعرض عليهِ الخلافة وارسل الكتاب مع طاهر ولد اسحق الزغاوي فلم يلتفت السيد السنوسي الى الرسول ولا اجاب الكتاب

وكان قد اخذ في تنظيم البلاد التي خضعت لهُ فانشأ بيت المال كما تقدم وجمع فيهِ العشور والفطر والزكاة وهما ربع عشر الغنائم والاموال التي تؤخذ من المجرمين الذين يسرقون او يسكرون او يدخنون التبغ وسلم ادارتهُ لصديقهِ احمد ولد سليمان . واقام قاضيًا سماهُ قاضي الاسلام ليقضي في الدعاوي وكان هو وخلفاؤهُ يعاقبون كل من عدُّوهُ مجرمًا من غير محاكمة ولا سيما اذا تجاسر على الشك في دعوتهِ . وعقاب من اتُّهم بذلك الموت . ولما كان هذا مخالفًا للسنة امر ان تحرق كل كتب الفقه والحديث ولا يبقى الاَّ القرآن ونهى الناس عن تفسيرهِ . وكانت الدائرة تدور على اتباعهِ احيانًا كثيرة ولكنَّ الناس لم يكونوا يذكرون الاَّ نصراتهِ لتسلط الرهم على نفوسهم

وامتدت الثورة في دارفور وبذل سلاتين باشا جهدهُ في اخمادها فلم يستطع واخيرًا خانهُ اكثر رجالهِ ولما يئس من المدد واعياهُ واعيا رجالهُ الجوع اضطر الى التسليم. وكان في دارة قاعدة بلاد دارفور الجنوبيَّة ضابط غنيٌّ جدًّا اسمهُ زقل بك وكان من اقارب المهدي فكاشف بعض اخصائهِ بالانحياز اليهِ فاستدعاهُ سلاتين باشا وقرَّرهُ فاقرَّ بذلك ناسبًا ميلهُ الى المهدي الى ما بينهما من النسب ولكنهُ قال انهُ لم يزل امينًا في خدمة الحكومة. فطلب منهُ سلاتين ان يحمل لهُ رسائل الى الخرطوم وان يبذل جهدهُ ليمنع المهدي عن الزحف على دارفور الى ان تصل الحملة التي ارسلتها الحكومة المصريَّة لتأييد سلطتها في السودان فان نجحت الحكومة فسلاتين يشفع بهِ عندها والاَّ فيسلم البلاد للمهدي عامرة وخير لهُ ان يستلمها عامرة من ان يستلمها خربة. اما الرسائل الَّتي ارسلها معهُ الى الخرطوم فوصف بها احوال البلاد بالاختصار. ثم حلف زقل بالطلاق ان يكون امينًا في ما ائتمن عليهِ وسار الى الابيض فاطلق لهُ المهدي مئة مدفع ترحيبًا بهِ وشاع حينئذٍ ان بلاد دارفور سلمت كلها للمهدي فلم تبقَ حاجة للزحف عليها. فصار المهدي يهتمُّ ببلاد النيل وبعث الامراء الى جهات مختلفة وفي جملتهم عثمان دقنه وهو تخاَّس من سواكن بعثهُ إلى شرقي السودان لعلهُ يحرس الحكومة المصرية ويمنعها عن ارسال حملة هكس باشا لكنَّ الحملة أُرسلت وقام هكس باشا من الخرطوم في سبتمبر سنة ١٨٨٣ والتقى بعلاء الدين باشا في دوم وسارا سوية

وقد اخطأت الحكومة المصرية في ظنها ان هكس ورجالهُ العشرة آلاف يستطيعون ان يخمدوا الثورة ويقهروا المهدي بعد ان تغلَّب على كردفان كلها واخذ الاسلحة من حاميتها وضمَّ جيوشها الى جيوشهِ

ووصف سلاتين جنود هكس وسيرها وصفًا يدل على ان الخوف كان مستوليًا على نفوسها وان هكس نفسهُ سار سير المستقتل. وفرَّ رجل من جيشهِ ومضى الى المهدي واخبرهُ عمَّا فيهِ من الخلل وما يلاقيهِ من العناء اثناء الطريق من قلة الماء فوثق المهدي بالغلبة وقال لرجالهِ ان النبي ظهر لهُ ووعدهُ بعشرين الف ملاك يقبلون لنجدتهِ. وكانت الحكومة المصريَّة قد اكدت لهكس باشا انهُ يجد نجدة في اثناء الطريق من ستة آلاف مقاتل ويجد اناسًا يهدونهُ إلى الماء فلم يجد غير جنود الاعداء تترصدهُ في سيرهِ فخارت عزائم جنودهُ وجعل المصريون منهم ينادون "مصرفين ياستي زينب دي الوقت وقتك" فيجيبهم السودانيون "ده المهدي المنتظر ده المهدي المنتظر". ثم هجم عليهم اكثر من مئة الف مقاتل من رجال المهدي دفعةً واحدةً ودخلوا المربع فلم يثبت منهُ امامهم الاَّ الضباط الاوربيون وفرسان

الاتراك فانهم بقوا في مواقفهم إلى ان قتلوا عن آخرهم وقُطع رأس هكس باشا ورأس انيارون سكندورف وارسلا إلى المهدي . والذين نجوا من رجال هكس باشا وسلموا اسلحتهم لم يسلموا من القتل . وغنم رجال المهدي كل الاسلحة والميرة وجردوا القتلى من ثيابهم واخذوا معها يوميات بعض الضباط الاوربيين واطلع سلاتين عليها بعد ذلك فوجد ان الخلاف كان مستحكماً بين هكس باشا وعلاء الدين باشا وان الجنود والضباط كانوا في حالة اليأس الشديد

وغنيٌّ عن البيان ان هٰذا الفوز المبين اخضع اهالي السودان عموماً لسلطة المهدي وقوّى اعتقادهم بهِ حتى كادوا يعبدونهُ عبادة

وحاول سلاتين باشا ان يحفظ بلاد دارفور ولكن لما بلغهُ ما حلَّ بهكس وحملتهِ أيقن بالهلكة وكانت قبائل العرب قد اجتمعت وحاصرتهُ في دارة فاضطرَّ الى التسليم وكتب الى المهدي يعرض عليهِ التسليم بشرط ان يرسل واحداً من اقاربهِ يسلم لهُ البلاد وان يؤمّن من فيها على دمائهم فعين المهدي زقل المتقدم ذكرهُ مديراً لعموم بلاد المغرب فسلم لهُ سلاتين في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٨٣ بعد ان بذل جهدهُ في تأييد سلطة الحكومة المصرية مدة اربع سنوات واخمد ثورات كثيرة وعرّض نفسهُ للقتل مراراً . واعطاهُ زقل كتاب المهدي وفيهِ انهُ عيّن السيد محمد خالد (اي زقل) اميراً على الغرب واوصاهُ ان يعامل سلاتين بالاكرام الذي يستحقهُ مقامهُ ويعفو عن كل الذين كانوا في خدمة الحكومة . وكان بين الامراء الذين حاصروا دارة قبلاً وجاءوا مع زقل الآن امير عربي اسمهُ مادبو وكان سلاتين قد قهرهُ مرةً واخذ طبولهُ فتقدم الى سلاتين واظهر لهُ صدق ولائهِ ونصحهُ نصيحة كررها سلاتين بعد ذلك مراراً وهي "اصبر فان الله مع الصابرين" ثم اهدى اليهِ جوادهُ واسمهُ صقر الدجاج وهو من اجود خيول العرب . فاراد سلاتين ان يردَّ الهدية قائلاً ان الاحوال الحاضرة لا تأذن لهُ بركوب الخيل . فقال لهُ مادبو " اللي عمرو طويل يشوف كثير " . فاخذها سلاتين مثلاً وكرّرها بعد ذلك مراراً وقبل منهُ الجواد وردَّ لهُ طبول الحرب التي غنمها منهُ وهي عندهم مثل رايات الحرب عند الاوربيين . فشكرهُ مادبو على ذلك وقال لهُ " الرجال شرّاده وزرّاده " اي تُغلَب وتغلِب

ودخل رجال زقل دارة ونهبوها وغنموا كل ما فيها وعذّبوا اهلها عذاباً اليماً ليدلوهم على اموالهم . واخذوا كل البنات الحسان وارسلوهنَّ الى المهدي . وكانت حامية الفاشر قد قبلت بالتسليم فلما بلغها ما حلَّ باهل دارة عزمت على الدفاع ودافعت سبعة ايام فعلت فيها افعال الابطال لكنها اضطرت الى التسليم اخيراً لقلة الماء فنُهبت عاصمة ملوك دارفور وعُذّب اهلها

عذاباً مبرحاً . وحكم زقل البلاد وجمع ثروةً وافرة وكان يعرف كيف يترضى المهدي وخلفاءهُ الثلاثة فيرسل اليهم وقتاً بعد آخر سرياً من البنات الحسان والجياد والابل . وتزوَّج باخت سلطان دارفور السابق وعاش بالبذخ والاسراف كانهُ ملك عظيم الشان

ولكنهُ لم يتمتع بالملاذ زماناً طويلاً . فلما مات المهدي وخلفهُ عبد الله التعايشي فتك باقرباء المهدي فخاف ان ينتقض زقل عليهِ فاستدعاهُ بحيلة وابعد عنهُ رجالهُ واتباعهُ وجرَّدهُ من سلاحهِ واخذ اموالهُ وارسلهُ الى الابيض مكبلاً بالقيود فبقي حولاً كاملاً يتأسف و يتندَّم ولات ساعة مندم . ثم عفا عنهُ وردَّ اليهِ يسيراً من اموالهِ وجعلهُ اميراً على دنقلة . لكن يعقوب اخاهُ الذي لهُ اليد الطولى في كل دسيسة تأول الى تعزيزهِ واهلاك كل من ينازعهُ السلطة كاد لزقل مكيدة اخرى فاستدعي الى ام درمان واتُّهم بانهُ طعن على التعايشي وعلى اقاربهِ وقال انهم خربوا البلاد فحكم عليهِ بالسجن . ثم ان جريدة من الجرائد العربيَّة نقلت عن جريدة ايطاليَّة ان زقل هذا يخاطب الحكومة المصريَّة سرًّا بتسليم دنقلة اليها فوقعت الجريدة في يد التعايشي فجمع القضاة والامراء واراهم ما ورد فيها حاسباً اياهُ دليلاً قاطعاً على خيانتهِ فحكموا عليهِ بالقتل لكن التعايشي لم يقتلهُ بل كبلهُ بالحديد وقادهُ الى جبل الرجاف منفى اشقى المغضوب عليهم

ودعا المهدي سلاتين اليهِ بُعَيْد تسليمهِ ورحَّب بهِ وامرهُ ان يأتمر بامر الخليفة عبد الله . و بايعهُ سلاتين البيعة المعتادة وهي " باسم الله الرحمن الرحيم بايعنا الله ورسولهُ وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصاك في المعروف . بايعناك على ترك الدنيا والآخرة ولا نفرُّ من الجهاد " . والظاهر ان سلاتين لم يفهم معنى البيعة فهو يظن ان المهدي هو الذي بايعهُ

وكان المهدي طويل القامة اسمر اللون واسع المنكبين قوي البنية كبير الرأس اسود العينين اسود اللحية على كل خدٍّ من خديهِ ثلاثة جراح حسب العوائد المتبعة عند قومهِ وهو يتبسم كثيراً ليظهر فلج اسنانهِ وفلج الاسنان مستحبٌّ جدًّا في بلاد السودان ولذلك لقبوهُ ابا فلجة . وكان يلبس جبة قصيرة معطية بالعود والمسك وعطر الورد . وكان اتباعهُ يشمون رائحة المهدي و يقولون انها مثل رائحة اهل الجنة

وفي تلك الاثناء وصل غوردون باشا إلى الخرطوم ولا جنود معهُ عازماً ان يخمد الثورة بما لهُ من المهابة في النفوس ومن الخبرة باحوال السودان فخيبت مساعيهِ وقُتل شرَّ قتلة كما سيجيء في الجزء التالي